Journal of the College of Education for Humanities
Volume 14, Issue 4, 2024 ISSN:2707-5672

مجلة كلية التربية للعلوم الانسانية – جامعة ذي قار
المجلد ,14 العدد / 4 الرقم المعياري2707-5672

الإصلاح في فكر الإمام علي عليه السلام دراسة في الخطاب والخطاب المضاد

د . خالده علي فليح
العراق جامعة سومر
Khalidahali2019@gmali.com

الملخص

يدور هذا البحث في البحث في الخطاب المضاد الذي تشكل في خلافة الإمام علي (ع) وهو خطاب تبناه خصومه فتأثرت به القاعدة العامة من الناس فظهر انحراف عن المبادئ الدينية والإنسانية التي كان الإمام ينادي بها ويعمل جاهدا على تحقيقها ، وهي سعي منه لتحقيق العدالة في حكومته ، غير أن الأمام قد واجه ميلا وانحرافا عن تلك القيم التي تربى عليها منذ كان مصاحبا للنبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وظل محتفظا بها رغم مرور السنين ، ومما واجه الإمام أنه وجد السواد الأعظم من الناس ميالا عن تلك القيم والمبادي والأسس ، لذا واجه صعوبة بالغة في تصويب تلك المسارات المجتمعية وتهشيم ذلك الخطاب المضاد (المنحرف) ، خصوصا وأن الفتن والتمرد والخروج على سلطته من قبل معاوية والخوارج وغيرهم لم تمهله لتحقيق ما كان يصبو إليه . وفي خطبه ورسائله إشارات كثيرة صريحة وضمنية إلى ذلك الانحراف والتخاذل الذي أصاب القاعدة الشعبية التي كان الإمام مهتما في بنائها بناء سليما ، ولقد اخترنا نماذج من تلك الخطب لتكون شواهد في بيان الوهن والميل الذي وقعت فيه غالبية الأمة آنذاك ، ولم يتردد الإمام في طرح المشكلات والمعالجات لبناء مشروعه الاصلاحي لكن يد الغدر لم تمهله فذهب شهيدا في سبيل الاصلاح ، والقيم والمبادئ السامية ، التي وظفها فكرا ومنهجا وسلوكا لبناء مجتمع اسلامي مثالي . وبقي التأكيد أن الاصلاح عند الإمام هو خطاب موجَّه ، وأن الميل أو الانحراف هو خطاب مضاد.

الكلمات المفتاحية : الاصلاح ، فكر الإمام ، الخطاب ، الخطاب المضاد

الباحث:
الايميل:

Journal of the College of Education for Humanities
Volume 14, Issue 4, 2024 ISSN:2707-5672

مجلة كلية التربية للعلوم الانسانية – جامعة ذي قار
المجلد ,14 العدد / 4 الرقم المعياري2707-5672

Reform in the thought of Imam Ali (peace be upon him) (A study of discourse and counter-discourse)

Dr . Khaleda Ali Falih
Iraq Sumer University
Khalidah ali 2019@gmali . com
Dr _ khali dah ali Fliah

Abstract

This research revolves around examining the counter-discourse that was formed during the caliphate of Imam Ali (peace be upon him). It is a discourse that was adopted by his opponents, and the general base of people was affected by it, and a deviation from the religious and humanitarian principles that the Imam was calling for and working hard to achieve appeared, which was his effort to achieve justice in his government. However, the Imam faced a tendency and deviation from those values that he had been brought up with since he was a companion of the Noble Prophet, may God's prayers and peace be upon him and his family, and he continued to maintain them despite the passage of years. Among the things that the Imam faced was that he found the vast majority of people inclined to those values, principles and foundations, so he faced Extreme difficulty in correcting those societal paths and destroying that (deviant) counter-discourse, especially since the strife, rebellion, and rebellion against his authority by Muawiyah, the Kharijites, and others did not give him the opportunity to achieve what he aspired to. In his sermons and letters, there are many explicit and implicit references to the deviation and failure that befell the popular base, which the Imam was interested in building in a sound manner. We have chosen examples of those sermons to be evidence in explaining the weakness and inclination into which the majority of the nation fell at that time. The Imam did not hesitate to present problems and solutions. To build his reform project, but the hand of treachery did not give him time, so he became a martyr for the sake of reform, and the lofty values and principles, which he employed in thought, method, and behavior to build an ideal Islamic society. It remains to be emphasized that reform according to the Imam is a directed discourse, and that inclination or deviation is a counter-discourse.

Keywords: Reform, Imam's thought, discourse, counter-discourse

مقدمة البحث :

في الكوفة مركز الخلافة الإسلامية ، تعرض الإمام علي (عليه السلام) إلى ثقل مسؤولية الخلافة وعبئها الشديد على كاهله الشريف ، وذلك لظهور فكر مضاد يحمل نوايا لم تكن سليمة ، تسير في اتجاه مخالف لما يريده أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ويرجوه من أجل بناء الدولة الإسلامية آنذاك ، لاسيما ، وقد ورث (عليه السلام) ممن سبقوه مجتمعا معبئا بأفكار وخطابات منحرفة لا تمثل ثوابت الإسلام المحمدي السليم .

لم يكن ذلك الانحراف وليد الساعة بل جاء بسبب طريقة بناء المجتمع الإسلامي في العهود التي سبقت أمير المؤمنين (عليه السلام) ، على مستوى التفكير الديني المنحرف الذي يؤدي بالضرورة إلى سلوكيات إنسانية غير صحيحة

لـم يكن (عليه السلام) شديدا أو متعسفا مع رعيته بل ترك لهم حرية الاختيار في طريقة عيشهم وحياتهم ، لكنه (عليه السلام) لم يتخلف أو بقصر يوما عن تكليفه الشرعي في نصحهم أو ارشادهم أو توعيتهم نحو الخير والصلاح ، وتبيان طرق الحق .

ذلك السلوك الإنساني الرؤوف جعل تلك الأفكار المنحرفة تكشف عن لثامها فتسفر وجوها سوداء كانت سببا في معاناة أمير المؤمنين (عليه السلام) في الكوفة . ولقد كشف بعض المنحرفين عن نواياهم مستغلين تسامحه ورأفة الإمام كما أشرنا ،

أما الأفكار المنحرفة التي شكلت خطابا مضادا ، فلم يستطع أصحابها أن يعبروا عنها صراحة بشكل مباشر ، يل كشفها هو(عليه السلام) في خطبه وأحاديثه الموجهة إلى أهل الكوفة هناك بشكل خاص وإلى الناس عامة ممًا يدل على ضجره وضيقه بسلوكهم المنحرف وهو كشف لا تتلوه عقوبة منه (عليه السلام) .

وسوف نحاول في هذا البحث الكشف عن تلك الافكار التي تمثل (خطابا مضادا أو مغايرا) لما كان يرجوه أمير المؤمنين أو يطمح إليه ، لكن القدر لم يمهله حتى يكمل مسيرته المُحمدية الإنسانية السليمة هناك .

الخطاب والخطاب مضاد:

يعد مفهوم(الخطاب)* ، من القضايا المشكلة حديثا في الدرس اللساني ، وهو ذو مرجعيات مختلفة يختلف مفهومه باختلاف الحقل الذي ينتمي إليه ، فهناك الخطاب الاجتماعي والسياسي والأدبي والفكري وغيره ،وتعمل العلوم والدراسات النفسية والاجتماعية واللغوية على تأسيس مفهومه ووضع مبادئه وإجراءاته ، فضلا عن وسائل إعادة انتاجه وتسويقه للمخاطبين (1) .

وارتبط مفهوم الخطاب بالسلطة بوصفها عاملا مسيطرا ومنظما للخطاب ذاته ، لأن السيطرة على الخطاب ليست ممارسة اجتماعية فحسب بل هي سيطرة على عقول الناس أي التحكم بآرائهم ومعتقداتهم وميولهم ومعارفهم ، وقد تكون تلك السيطرة مباشرة مقصودة أو غير مباشرة ،وربما تكون ذات عواقب غير محمودة ، لأن أفعال الناس رهن بعقولهم ، والتحكم بالعقول سوف يؤدي بلا شك إلى التحكم بالعقول ، والعملية الأساسية لإعادة تشكيل سلطة ما يكون عن طريق إعادة انتاج الخطاب (2) .

وثمة مفهوم شائع لكنه خاطئ وهو أن توظيف السلطة قد يؤدي إلى الهيمنة ، وأن السطلة بطبيعتها سيئة . فمن الصعب توظيفها توظيفا محايدا أو إيجابيا على وفق هذا التصور ، ولكن المجتمع أي مجتمع لا يصل الكمال أو قريبا منه ما لم تكن هناك سلطة تتحكم به ، أي ما لم يكن هناك نظام من الضوابط والاحكام والقواعد التي تتحكم بسلوكه اليومي ، دينيا واجتماعيا وثقافيا ، بمعنى لا بد من وجود سلطة تتبنى خطابا خاصا بها لتحقيق عملية التوازن المجتمعي (3) . وهنا يوظف الخطاب توظيفا إيجابيا أو محايد ليحقق أهدافه وغاياته ولعله من الجائز أن يسمى هذا الخطاب بالخطاب الموجه .

ينماز الخطاب عند الإمام بوصفه خطابا موجها يمتلك قوة التأثير والإقناع ، ويراعي الروابط المشتركة بين طرفيه (المرسل والمرسل إليه) ، ويختلف باختلاف أحوال المخاطبين ، ويتوخى الدقة في الأسلوب والتعبير فيختار أنسب الألفاظ ، فهو يشتد تارة ويلين تارة أخرى ولا يهمل ما تعرفت عليه العرب في خطابها بما تسميه مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

تمثل الأفكار والإصلاحات التي تبناها الإمام في الكوفة مركز الخلافة الإسلامية في عصره ، خطابا إصلاحيا يمثل المؤسسة الدينية والاجتماعية والأخلاقية في حكومته فكرا وسلوكا ، وطبيعي أن تخسر بعض الشخصيات الاجتماعية والسياسية نفوذها في ظل هذا الخطاب الاصلاحي ،فتتبنى خطابا مضادا غايته اجهاض المشروع الاصلاحي الذي تنادي به الحكومة المركزية ،وليس بالضرورة أن يكشف الخطاب المضاد عن وجهه بصورة مباشرة ، وإذا أردنا أن نعثر ملامح ذلك الخطاب فإننا نجده في خطب الإمام ورسائله ووصاياه للأمة آنذاك .

عالج الإمام الخطاب المضاد الذي تبناه بعض الخصوم أو الذي تبناه عامة الناس من الذين يجهلون الحقائق فعبر عن ذلك تعبيرا بيانيا يدل على أنه خطابه يمثل أيديولوجيا غايته الإخضاع غير القسري الذي يختلف عن الخطابات الذي تمارسه الدكتاتورية أو الذي تتبناه الحكومات التي تصادر الرأي الآخر أو تسعى إلى مصادرته ، ولكنه يؤسس عملية إقناع تنشأ أساسا على جذر من الصدق والممارسة العملية التي تتآلف مع المعتقد ، وبذلك فهي تهيئ لرسوخ لا يهدد الآخر بل يسعى إلى الإقناع والتأثير في تخلي الآخر عن وجهة نظره الخاطئة والرجوع عنها إلى تبني وجهة نظر الخطاب السليم .

ينهض الخطاب المضاد بوصفه خطابا منحرفا ليصبح ملمحا فكريا يمثل طائفة من المنحرفين أي الميالين عن سواء السبيل الذين كانوا يمثلون الخط الثاني الذي صُنع في السنوات التي سبقت خلافته (عليه السلام) ، وهي صنيعة أُحكمتْ بإتقان من قبل صانعها وذلك من خلال ترسيخ كثير من الأفكار المنحرفة التي سادت في تلك المدة مثل التخاذل عن جهاد العدو والتكاسل في طلب الحق والجهل في أموره.

ولم يكن ذلك الخطاب الاصلاحي الذي تبناه الإمام يـُوجه بشكل مباشر إلا في حالات نادرة ، بل كان خطابا غير مباشر ، يمكن للباحث أن يجده في خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) وكتبه ورسائله الموجهة الى أهل

الكوفة آنذاك وعماله ورعيته ، وهو خطاب يمثل الفكر المجتمعي الشائع الذي يمثل أصحابه هناك أو يمثل معتقديه ، ولا يمنع أن يكون اغلب متبني هذا الفكر هم ممن كانوا في معسكر أمير المؤمنين (عليه السلام) ، بمعنى أن امير المؤمنين كان يدرك تماما أنذلك الفكر قد تسرب حتى إلى الذين هم في معسكره بسبب عقائدهم التي تربوا عليها أو بسبب أثر السياسات التي سبقته. ومن هنا نراه كثير الشكوى والتذمر من ذلك الفكر الذي أثر على مسيرة بناء الدولة واستقرارها .

وقف ذلك الخطاب المضاد حجر عثرة أمام تطلعات الإمام ، وهو فكر يعبر عن ثقافة المجتمع آنذاك ،وكثيرا ما كان فكرا مستفزا لأمير المؤمنين (عليه السلام) ينم عن قلة إدراك ذلك المجتمع للحكومة الإسلامية الصحيحة أو لطريقة بناء الدولة أو لإتباع السلوك المجتمعي الإنساني القويم .

إن ٍالكشف عن لغة الفكر الإصلاحي التي صاغها الإمام بنفسه ، وهي من غير شك لغة بيانية تمثل فهمه لذلك الفكر ثم تبيان طريقة التعبير عنه ، فضلا عن إيضاح مشاعره تجاه ذلك الانحراف الفكري أو السلوكي الذي ساد المجتمع والذي يخضع لحكم الإمام السياسي والديني والذي تبناه الخطاب المضاد.

وسرعان ما كشف أولئك المنحرفون عن خطابهم المضاد الذي يمثل نياتهم التي حاولوا أن يضمروها أو يتستروا عليها الذي اتضحت معالمه بعد استشهاده (عليه السلام) ، فقد انفرط عقد المجتمع الكوفي عن الإمام الحسن (عليه السلام) ، مما اضطره للتنازل عن الخلافة لمعاوية لعلمه بانحراف ذلك الجمهور الذي كان معه عن المبادئ السليمة في بناء المجتمع .

الخطاب الهادف:

لا شك أنَّ خطاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، لم يكن تـرفا فكريا بل كان خطابا مقصودا لذاته ذا أهداف مختلفة على صعيد عملية التلقي برمتها . ومثله يؤكد تعدد الرؤى التي كانت سائدة آنذاك ، فضلا عن ذلك يشي بفسحة من الحرية الفكرية التي كان يمارسها رعية أمير المؤمنين (عليه السلام) ، أما الخطاب المضاد فهو يمثل ممارسة ثقافية أو هاجسا مضادا للآخر يتبناه أصحابه أو معتقديه ، وقد يكون الحرية التي آمن بها الإمام في أحقية الفرد أن يعبر عن أفكاره قد أصبحت أمرا مؤلما على القيادة هناك ، إذ لا يستطيع . رغم ما يمتلك من قدرات على مستوى العصمة أو الإنسانية .أن يمسك زمام المبادرة أمام خصومه ، الأمر الذي جعل ذلك الخصم في مرتبة التفوق ، لأنه يجيز لنفسه استعمال أساليب الترغيب أو الترهيب تحت مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، وهو مبدا لا يجد مكانا له في تصورات الإمام .

والخطاب في نهج البلاغة على اختلاف أنواعه سواء أكان خطبة أو رسالة أو وصية أو موعظة ، قصيرا كان أو مطولا هو في مستوى واحدا من الإبداع والنضج الفني والأداء البياني فيكون من العسير ترجيح بعضه على بعضه الآخر، بوصفه شبكة متجانسة من مستويات تعبيرية تمتلك خصوصية تتناسب مع طبيعة الحدث والموقف

والمناسبة التي يكون الكلام بصددها ، وهي خصوصية ينماز بها خطاب الإمام وينفرد عن غيره في تملك التأثير على الآخر .

إنَّ الخطاب في نهج البلاغة يتمثل في شكلين ، الشفاهي والكتابي ، أو المنطوق والمدون، فالأول يدخل فيه كلام أمير الإمام في أشياء تخص الدولة وسياستها ، مضافا إليه ذلك الكلام الذي كان يقوله الإمام جوابا على سؤال قد يتعلق بالربط العقائدي بين القتال وبين شرعيته من وجهة النظر الإجبارية أو الاختيارية (4) .

ومهما يكن نمط الخطاب المُوجه في نهج البلاغة أو نوع المتلقي الذي يقع عليه نمط ذلك الخطاب ، سواء أكان موالياً أو منحرفا ، فإنَّ خطابه (عليه السلام) ؛ هو ((خطاب متعدد القيم ، لأن مماحكة بلاغية في أي نص ـ طال أم قصر ـ من نصوص نهج البلاغة تدلنا على ثراء صوري ذي معنى ممتد تتجاور فيه الأفكار وتتمازج وتتفاعل فتخرج بذهن المتلقي من دائرة التأثير المباشر إلى دائرة الاندماج المفاهيمي مع النص ، ولا يمكن أن نقول أنَّ هذا الخطاب هو خطاب أحادي المعنى أو القيمة ، لأنه مليء بالأصوات المتناغمة مع الأفكار التي يتضمنها النص ، مما يجعلها تبرز بشكل نتوءات صارخة خلال النص)) (5) .

إنَّ هذا الخطاب الموجه أي (المقصود لذاته) ، هو خطاب نلحظ فيه مراعاة المتلقي بشكل عجيب ، بمعنى جاء وفقا لمستويات التلقي فجاء متنوعا يدور في عوالم كثيرة ، فهو مثلما وصفه الشيخ محمد عبده بقوله ،((فتارة كنت أجدني في عالم تغمره من المعاني أرواح عالية في حلل من العبارات الزاهية ، تطوف على النفوس الزاكية ، وتدنو من القلوب ، توحي إليها رشادها ، وتقوم منها مرادها .....، وطورا كانت تتكشف لي الجمل عن وجوه باسرة، وأنياب كاشرة ، قد تحفزت للوثاب ، ثم انقضت للإختلاب فخلبت القلوب عن هواها ، وأخذت الخواطر دون مرادها))(6) .

ثـم يعبر عن شديد اعجابه بمنتج النص قائلا ((وأحيانا كنت أشهد أن عقلا نورانيا لا يشبه خلقا جسدانيا ، فضل عن الموكب الإلهي واتصل بالروح الإنساني فخلعه عن غاشيات الطبيعة ، وسما به إلى الملكوت الأعلى))(7) .

إنَّ مثل هذا الوصف الذي تحدث به الأستاذ محمد عبده لهو وصف جاء عن خبير بقيمة المفردة وأثرها وطريقة بنائها فضلا عن ذلك كله هو ((وصف ينبئ عن المستوى التأثيري الذي اضطلعت به عملية توصيلية مؤثرة ما زالت تتناغم مع فكر المتلقي حتى اللحظة ، وهذا متأت من أن صاحبه في المستوى الإبداعي ذاته في خطابه ـ الشفاهي والكتابي ـ لا فرق بينهما ، وفي سلطته النفسية على ذاته التي تتمثل كل ما تفوه به في سلوكيات وممارسات ، كانت تمثل الرؤية التي تنطلق منها إلى التعامل مع الآخر في شفافية مرهفة)) (8) .

والغريب أنَّ الخطاب في نهج البلاغة يحمل صفتين ،هما من صفات النصوص الراقية التي أنتجها منشوؤن مبدعون ، وأعني بهاتين الصفتين هما ،(الصدق الفني ، والصدق الواقعي) ، وهو بذلك نص فريد ،كما وُصفَ بقول أحد الباحثين بقوله فـ ((النص ينقل أفكاره بصدق تام)) (9) .

يبدو أن أواصر التفاهم أو القبول بين أمير المؤمنين (عليه السلام) وبين أغلب رعيته في الكوفة قد كان مفقودا أو كاد أن يكون كذلك ، فقد جرت العادة أن يطيع الجنود القائد الأعلى ، ولا يعصون له أمرا ، غير أنَّ الأمر كان مختلفا معه في بعض الأحيان .

الخطاب المضاد/ ملامح الانحراف

كان سلوك أهل الكوفة ليس سويا ، ويبدو الانحراف فيه واضحا ، ويظهر التخاذل عندهم جليا لا يحتاج إلى تتبع أو تدقيق ، ولقد صور (عليه السلام) ذلك التخاذل تصويرا يدل على أمرين :

الأول : معرفته الدقيقة بأحوالهم ، وميلهم النفسي عنه .

الثاني : تبنيه (عليه السلام) عملية بناء الخطاب بشكل يدل على امكانية فنية بيانية عالية من منشئ الخطاب بطريقة تكون عملية انتاج ذلك الخطاب من قبل المنشئ أولا ، وفهمه من قبل المتلقي ثانيا ، إذ تشكل تكلك العملية ((مظهرين لعملية واحدة وإنْ اختلفا في الحدوث من حيث تبادل الأدوار التخاطبية ما بين المتكلم والسامع)) (10) .

يقول(عليه السلام) مخاطبا أهل الكوفة :

((أُف لكم ! لقد سئمتُ عتابكم . أرضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة عِوضا ؟ وبالذل من العز خلفا ، إذ دعوتُكم إلى جهاد عدوكم ، دارتْ أعينكم كأنكم من الموت في غمرة ، ومن الذهول في سكرة ، يُرتجُ عليكم حواري فتعمهون ، فكأنَّ قلوبكم مألوسة ، فأنتم لا تعقلون ، ما أنتم لي بثقة سجيس الليالي ، وما أنتم بركن يُمالُ بكم ، ولا زوافر عز يُفتقرُ إليكم ، ما أنتم إلا كإبل ضلَّ رُعاتها ، فكلما جُمعتْ من جانب ، انتشرتْ من جانب آخر. لبئس لعمر الله سَعْرُ نارِ الحرب أنتم ، تكادون ولا تكيدون ، وتنتقض أطرافكم فلا تمتعضون ، لا يُنام عنكم وأنتم في غفلة ساهون ، غُلب ، واللهِ المتخاذلون ، وأيم الله إني لأظن بكم أنْ لو حَمِس الوغى ، واستحر الموتُ ، قد انفرجتم عن أبي طالب انفراج الرأس ، ولله أمرأ يُمَكنُ عدوه من نفسه ، يَعرُقُ لحمه ،ويهشم عظمه ، ويفري جلده ، ضعيفٍ ما ضُمَتْ عليه جوانح صدره ، أنتَ فكن ذاك إنْ شئتَ فأما أنا فو الله دون أنْ أُعطي ذلك ضربٌ بالمشرفية يطيح منه فراشُ الهام ، وتطيح السواعدُ والأقدامُ ، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاءُ)) (11) .

إنَّ تذمر أمير المؤمنين (عليه السلام) من الكوفيين كان واضحا في هذه الخطبة الشريفة ، وهو تذمر يدل على انحرافهم عقائديا ، وعدم التزامهم بأوامره (عليه السلام) ، وهو إمامهم وخليفتهم الذي وجبت طاعته عليهم . وليس هناك انحراف أكثر من ترك جهاد العدو الذي فرضه الله تعالى على المسلم ، وهو انحراف يدل على حبهم للحياة الدنيا الزائلة ، وتفضيلها على الآخرة بكل نعيمها السرمدي ، جزعا من الموت ، وخوفا منه . ومن أجل بيان ذلك الجزع ؛ فقد شبه حالهم بحال المحتضر الذي يعاني سكرات الموت الذي لا يستطيع دفعه عنه ، إذ يقول (عليه السلام) : ((دارت أعينُكم ، كأنكم من الموت في غمرة ، ومن الذهول في سكرة)) ، أعينهم مضطربة جزعا من شدة الموت ، وأبصارهم مذهولة ، وهو في ذلك يشير لقوله (تعالى) . في تصوير مثل تلك الحال . ((ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت)) (12)

ويصفهم أيضا بالتراجع والتردد في قبول رأيه ، فضلا عن ذلك ، فإنَّ قلوبهم ((مألوسة)) ، أي مسها شيء من الجنون ، فلم تعد هادئة بل مضطربة ، والأغرب من ذلك كله أنَّ هؤلاء القوم ليسوا ثقة يمكن أن يكونوا يوما محل اطمئنانه (عليه السلام) أو يكونوا ركنا يلجأ إليه في الشدة والنوائب ، ولم يكونوا يوما يمنعون عدوهم من حقهم ، وليسوا رجال حرب ، فهم ضعفاء تُغتصب حقوقُهم أمام أعينهم ، عدوُهم ليس غافلا عنهم ، يترقبهم ، ولا يترقبونه ، كل ذلك يدل على تخاذلهم واستسلامهم له ، فهم مغلوبون لا محال ، والأشد من ذلك ،أنَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) ، يتوقع تخليهم عنه إذا اشتدت الحرب ، فيوشكون أنْ يسلموه للعدو ،

ويشبه ذلك الأمر يقوله : ((إني أظنُ بكم أنْ لو حمس الوطيس ، واستحر الموتُ انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس)) . أي ((انفراجا لا التئام له بعده ، فإنَّ الرأس إذا انفرج عن البدن أو انفرج أحد شقيه عن الآخر لم يعد للإلتام)) (13) .

وليس هناك أكثر من انحرافهم وميلهم عن الصواب من قوله في تأنيبهم قائلا ((... وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم)) .

لقد كان انحرافهم عن أوامره (عليه السلام) قد تسبب في خسارته لحرب صفين ، إذ أوشك (عليه السلام) أن يهزم معاوية وجنده لولا خديعة عمرو بن العاص ، وتخاذل أبي موسى الأشعري الذي أدى إلى قبوله التحكيم مرغما ، وهو (عليه السلام) يدرك أنَّ المنافقين في معسكره سوف يستغلون ذلك لتخرج الأمور عن السيطرة وتحويل النصر إلى هزيمة . لقد كان الإمام ناصحا لأتباعه ، مشفقا عليه ، لكنهم عصوا أوامره ،وهو الخبير المجرب ، فأورثهم هذا التصرف حسرة وندامة ، وفي ذلك الانحراف عن منهجه (عليه السلام) ، وفي ذلك يقول :

((أما بعدُ فإنَّ معصية الناصح الشفيق العالم المجرب ، تورث الحسرة وتعقب الندامة ، وقد كنتُ أمرتكم في هذه الحكومة أمري ، ونخلتُ لكم عن مخزون رأيي ، ولو كان يطاع لقصير أمرُ)) (14).

ثم يقول (عليه السلام) في بيان عنادهم وخلافهم : ((فأبيتم عليَّ إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العُصاة ، حتى ارتاب الناصحُ بنصحه ، وضنَّ الزندُ بقدحه ، فكنتُ وإياكم كما قال أخو هوازن :

أمرتُكم أمري بمُنعرج اللـوى فلم تستبينوا النُّصحَ إلا ضحى الغـد (15)

لقد وظف (عليه السلام) المثل والشعرمعا لبيان تخاذلهم وميلهم عنه ، وذلك لاتصالهما بقصة يعرفها المتلقي ، ويدرك مضمونها ، فالشعر كما يقول (جان كوهن) : ((إنَّ للشعر قوة ثابتة للغة ، وطاقة سحر ، وافتنان)) (16) .

وأما المثل العربي فهو مورد آخر امتاح منه الإمام الصورة فأدخلها خطبته ، وذلك بسبب الفتن التي عاشها الإمام ، وما شاع في عهده من جدل وصراع وشبهات وحجاج ، يقتضى ذلك الاستشهاد بالمثل لتأييد مزعم أو لتوضيح معنى ، لأن الإتيان بالمثل بعد استقرارها في النفوس حجة للمتكلم على السامع (17)، لأنَّ ((المثل يتحدث عن الحاجة الشخصية في ثوب إنساني عام)) (18) .

إن الإمام علي (عليه السلام) لا يتوانى عن استعمال الأسلوب الذي يراه نافعا للمخاطب ، كلما استدعى الأمرُ ذلك ، لا سيما إذا سلمنا أن المثل والشعر قد حققا شيوعا عند الجماهير آ آنذاك ، فلم يعد المعنى والمقصود خافيا عنهم لا في الدلالة ولا في السياق ، مما هيأ لهذا التوظيف أن يدخل في دائرة التعالق النصي ، وهنا يأتي دور المنشئ في تلقي هذه النصوص ثم توظيفها جماليا ودلاليا (19) .

والبيت للشاعر الجاهلي ، دريد بن الصمة ، وهو من قصيدة يرثي بها أخاه (عبدالله) ، وكان ـ من سبب مقتل أخيه وهزيمة قومه ـ هو فوات فرصة النصح ، لعصيانهم قائدهم ، وعدم سماع رأيه ، وتجاهل خبرته ، الأمر الذي أدى إلى فوات فرصة النصر وضياعها منهم ، ثم ـ بعد ذلك ـ استبان لقومه جهلهم ، وصواب رأيه (20) .

إنَّ مستهل الخطبة الشريفة جاء مؤكدا بما يناسب حال المخاطبين ، ومضمون الخطاب الموجه لهؤلاء الناس ، بمعنى أن مقتضى حال المخاطب هو الذي يحدد شكل الخطاب وقوته ، ، فقد جاء التوكيد فيه لإزالة الشك والإنكار من ذهن الجمهور الذين تواطأ أغلبهم على عدم قبول النصح منه ، وهو يومئذ قائدهم الذي يجب ان يطيعوا له ويسمعوا، ولكن فسحة الحرية التي أتاحها لهم ، قد أفسدت عليه نصحه ومشورته لهم . ومثل هذا النص يمثل تعبيرا وافيا عن الإحجام الذي تلقاه أمير المؤمنين (عليه السلام) من جمهوره الكوفي آنذاك والخذلان الذي وقع عليه بسبب سلوكهم المنحرف ، فـ ((على الرغم من تلك الكفاية النصية ؛ فقد ضمنه بيتا شعريا يحمل المعنى نفسه ، أو يكون مكملا له ، وهو نص يكشف عن مدى الانتهاك الذي تعرض له رأي أمير المؤمنين (عيله السلام) من جمهوره)) (21) .

فـما أشبه حال أمير المؤمنين (عليه السلام) مع المخالفين والمعاندين له بحال الشاعر الجاهلي (دُريد بن الصمة) ، صاحب الشعر ، مـع قبيلته ، أي ((أنهم أجمعوا على مخالفته حتى شك في نصيحته ، وظنَّ أن النصح غير نصح ، وأنَّ الصواب ما أجمعوا عليه ، وتلك سنة البشر إذا كثر المخالف للصواب أتـهم المصيب نفسه)) (22) .

كما ضمن (عليه السلام) نصه . آنف الذكر. مثلا مشهورا ، وهو (لـو يُطاع لقصير أمرُ) ، وقـصة هذا المثل معلومة للمخاطب ، ولا تخفى دلالته على الذائقة العربية آنذاك ، وهي أنَّ قصيرا هذا هو ، ((مولى جذيمة المعروف بالأبرش ، وكان حاذقا ، وقد أشار على سيده أنْ لا يأمن الزباء ، ملكة الجزيرة ، فخالفه ، وقصدها ، إجابة لدعوتها إلى زواجه فقتلته ، فقال قصير : لو يُطاع لقصير أمر ، فذهب مثلا))(23)

ويقول (عليه السلام) فـي ذم المتقاعسين عن القتال من أهل الكوفة : ((مُنيتُ بمن لا يطيع إذا أمرتُ ، ولا يُجيب إذا دعوتُ ، أقوم فيكم مستصرخا ، وأناديكم مُتغوثا ، فلا تسمعون لي قولا ، ولا تطيعون لي أمرا، حتى تكشَّفَ الأمورُ عن عواقب المساءة ، فما يُـدرك بكم ثأرٌ، ولا يُـبلغ بكم مرامٌ ، دعوتكم إلى نصر إخوانكم ، فجرجرتُـم جرجرة الجمل الأسر، وتثاقلتم تثاقل النضو الأدبر ، ثم خرج إليَّ منكم جـُنيد متذائب ضعيف ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون)) (24) .

هذا الكلام خطب به أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما أغار النعمان بن بشير الانصاري على احدى بلدات الكوفة ، وحينها انتدب (عليه السلام) الناس في الكوفة للرد على تجاوزات معاوية بن أبي سفيان على أطراف العراق ، غير أنه لم يجد أذنا صاغية منهم ، فوجد نفسه مبتليا بهذا الصنف من الناس لا يطيعونه إذا أمر ، ولا يجيبونه إذا دعا ، تخلوا عن نصرة إمامهم ، وتلبية دعوة ربهم . ويبدو واضحا انحرافهم عن توجيهاته ودعواته ، وتخاذلهم عن نصرته قائلا : ((فما يُدرك بكم ثأر، ولا يُبلغ بكم مرامٌ .....)) ، فهم قوم متثاقلون ، متكاسلون ، يشبهون الجمل المصاب بداء السرور أو الجمل المهزول ، المجروح الذي يتثاقل في مشيته ، لا يقوى على النهوض .

أما وصفهم بقوله : ((ثم خرج إليَّ منكم جُنـيد ....)) ؛ فقد قال عنه الشريف الرضي : ((متذائب أي مضطرب ، من قولهم : تذاءبت الريح ،أي اضطربت هبوبها ، ومنه سُمي الذئب ذئبا لاضطرابه في مشيته)) (25) .

إن تصغير كلمة (جُنيد)، ((حمل السامع على تصور أولئك المتخاذلين ،وما هم عليه من خور ، فقد جاء التصغير على سبيل الامتهان والتحقير ، لأن كلمـة (الجند) قد تحدث في النفس جلَبَة وفزع المقاتل)) (26) ، والتصغير كما يرى ابن سنان الخفاجي لا يأتي في كلام العرب إلا لنفي التعظيم (27) .

يصف (عليه السلام) تخاذل أصحابه الكوفيين آنذاك وانحرافهم عن خطه الجهادي على العكس من أصحاب معاوية يجتمعون على الباطل ثم تفرقهم عنه على الرغم من تمسكه بالحق ، وثباته عليه . ولقد كان العصيان عندهم صفة تكاد تكون ملا زمة لهم آنذاك ،إذ يقول:

((وإني والله لأظن أنَّ هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم، وبمعصيتكم إمامكم في الحق، وطاعتهم إمامهم في الباطل ، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم. فلو ائتمنتُ أحدكم على قـعْـب لَخشيتُ أنْ يذهب بعِلاقته)) (28).

ويبدوأنَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) قد يئس من نصرة أصحابه له على عدوه ، وذلك لانحرافهم عن منهجه القويم فلم يتمسكوا به ، وهو دائم التوبيخ لهم لضعفهم وعجزهم عن الصمود بوجه الباطل . يقول في ذلك :

((كم أداريكم كما تُدارى البِكارُ العمِدَةُ ، والثيابُ المتداعية ، كلما حِيصت من جانب تهتكتْ من جانب آخر، أكلما أطلَّ عليكم مَنسرٌ من مناسر أهل الشام ، أغلق كل رجل منكم بابه ، وانجحر انجحار الضَّبة والضَّبعُ في وجارها . الذليل واللهِ من نصرتُموه ، ومن رُمي بكم فقد رُمِي بأفوقَ ناصلٍ ، وإنكم والله لكثير في الباحات ، قليل تحت الرايات)) (29) .

إنَّ نصا ثريا مثل نهج البلاغة يتمتع بجمالية شعرية عالية ، لسوف ينبئ القارئ عن وجوب تسلحه بقدرة تحليلية عالية أيضا ، ومن هنا فإنَّ ((الإبداع هو فن المغامرة الجمالية ، ويتجلى بأعنف صورة في العملية الشعرية التي تعبر عن فعل اختراقي من طراز رفيع)) (30) .

ويبدو ثراء النص آنف الذكر في تصوير أمير المؤمنين (عليه السلام) لذلك الانحراف في استعماله هذا الاستفهام الذي يحمل معنى التحسر والتأسف لذلك الانحراف ؛ فهو (عليه السلام) يشبه ذلك الانحراف بالإبل التي انفضح سنامها من الداخل ، الذي يبدو للناظر صحيحا ، ولكنه نحل وخرم من كثرة الركوب ، فهم أي (أصحابه) على الظاهر يبدون أصحاء غير أنَّ أنفسهم تنطوي على مرض النفاق . وهم أيضا يشبهون الثياب البالية ،(الخلِقة المُتخرقة) التي كلما حاول صاحبها أن يداريها بالرفق التام تمزقت ، إذ لا ينفع ذلك الترفق معها .

أما جُبنهم عن ملاقاة عدوهم ، فهو لا يخفى على أحد لكثرة تخاذلهم أمام أهل الشام ، فكلما طلعت عليهم قطعة من جيش الشاميين لاذوا في بيوتهم كأنَّهم الضَّبُع المذعورة التي تهرب خوفا من عدوها إلى جحرها .

ولا يمكن الوثوق بهم وقت الملمات ، لأنه من الضعف والعجز ما يشبه الرامي الذي يرمي بسهم(ناصل) ،أي أنه عار من النصل، والسهم إذا كان مكسور الفوق ، أي (موضع الوتر) لم يؤثر في الرمية ، فهم في ضعف أثرهم وعجزهم عن النكاية بعدوهم أشبه به (30) .

إن شيوع ثقافة التخاذل لهي أهم سمات ذلك الانحراف عند أغلب أصحابـه (عليه السلام) ، في الكوفة آنذاك مما يدل على فشلهم في استيعاب الحرية التي وهبها الإمام لهم ، فقد حاول أن يبني ذلك الإنسان الكوفي

بناء صحيحا بمنهج اسلامي صائب غير منحرف ، ولكن يبدو أنَّ سبب ذلك الانحراف الذي انطوت عليه نفوس أغلب الكوفيين هو تشبعهم بما ورثوه من الحكام الذين سبقوا أمير المؤمنين في إدارة الدولة من سلوكيات الانحراف وعاداته ، فضلا عن انشغال الإمام بالحروب والفتن التي ظهرت في عهده ، لاسيما فتنة الناكثين والخوارج فضلا عن تمرد معاوية في الشام الذي أرهق الدولة اقتصاديا ونفسيا واجتماعيا ، فلم يكن له متسع من الوقت لمعالجة سلوكهم وتقويم ما أعوج من عقائدهم .

لا شك أنَّ أمير المؤمنين(عليه السلام) يمتلك فدرة على توصيل الخطاب لمتلقيه من السامعين أو القراء ، بطريقة مخصوصة يحصل بواسطتها الفهم والإفهام أو ما يمكن أنْ يُصطلح عليه في النقد المعاصر ب"الابلاغ " ، ومعنى ذلك أنَّ المتلقي سوف يحصل على معلومات جديدة من الخطاب لم يكن يعرفها من قبل أو أنه كان يعرفها واقتضت الحاجة، أنْ يعيدها المتكلم علينا في سياق مغاير للسياق الذي كنا التقطناها فيه ، مما يشير إلى حاصل معرفي إيجابي نصل إليه بفك الشفرة في مستوى أول بسيط ، لا يتطلب من المؤول جهدا خاصا ، ويمكن أن يسمى هذا النوع من التخاطب بـ "التخاطب المباشر " .

أما المعنى الآخر الذي يحمله مثل هذا الخطاب فهو المعنى غير المباشر أو ما يسمى بالمعنى " الخفي " البعيد الذي نفتش عنه من تنوع طرق الإبلاغ ، وتعدد الإمكانات التي توفرها الأداة اللغوية ليتم للناس مرادهم ، بحسب ما يرمون بلوغه من مقاصد (31) .

وقد يكون الخطاب المضاد الذي يكون الانحراف عن جهل بحقائق الأمور أحد أهم مصاديقه ،ومن ذلك ما رواه الشريف الرضي أنَّ رجلا من أصحابه (عليه السلام) كان يجهل تماما طبيعة الحكومة التي حصلت بين جيش أمير المؤمنين من جهة وجيش معاوية من جهة أخرى في صفين ، وما تعاقد عليه الطرفان ، وما صحب ذلك من الخديعة والمكر الذي تعرض له وفد جيش الإمام من قبل عمرو بن العاص ، مما يدل على تفشي الانحراف في نفوسهم ، إذ يُروى أنَّ رجلا من أصحابه قال له :

" نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فما ندري أيَّ الأمرين أرشدُ ؟ " ، فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ، ثم قال : هذا جزاء منْ ترك العُقْدة ، أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيرا ، فإنْ استقمتُم هديتكم ، وإنْ إعوججتم قومتكم ، وإنْ أبيتم تداركتكم ، لكانتْ الوُثقى ، أريد أنْ أداوي بكم وأنتم دائي ، كناقش الشوكة بالشوكة ، وهو يعلم أنَّ ضلعها معها " (32).

إنَّ السائل يجهل مراد الإمام ، والجهل بالحق لهو وجه من وجوه الانحراف عن النهج السليم ، مما اضطر الإمام أن يوظف لمثل في قوله " عليه السلام " : " كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أنَّ ضلعها معها " وهو مثل "يُضرب للرجل يخاصم أخر ويستعين عليه بمن هو من قرابته أو هو من أهل مشربه " (33) .

أما قوله (عليه السلام) : " هذا جزاء من ترك العقدة " ، فيشير فيه إلى ما حصل عليه التعاقد من حرب الخارجين ـ من أمثال معاوية وطلحة وعائشة وأتباعهم ـ عن البيعة حتى يكون الظفر أو الهزيمة ، أي الظفر بالنصر وهزيمتهم (34) .

يبدو تثاقله (عليه السلام) من انحراف أصحابه وميلهم عن الحق ، فهم لم يتمسكوا بأوامره ونواهيه ، وذلك لجهلهم مكانته الدينية ، فقد شعر (عليه السلام) بالضجر من سلوكهم ، فهم لا يتقبلون هداية بعد

استقامة ، ولا تقويما بعد اعوجاج حتى صاروا داء يداوي به وهم داؤه الذي يبحث له عن دواء ، وهذا الأمر هو غاية الحَيرة .

ويشير (عليه السلام) بأسلوب غير مباشر إلى تخلي أصحابه عن مبادئ الإسلام التي تربى هو عليها ، وذلك حين يتذكر أصحاب رسول الله (ص) ، فيقــول :

((أين القوم الذين دُعوا إلى الاسلام فقبلوه ، وقرأوا القرآن فأحكموه ، وهِيجُوا إلى القتال فولهوا وَلـهَ اللقاح إلى أولادها ، وسلبوا السيوفَ أغمادها ، خُمصُ البطون من الصيام ، ذُبـل الشفاه من الدعاء ، صُقر الألوان من السَهر، على وجوهم غـبرة الخاشعين ، أولئك إخواني الذاهبون ، فحق لنا أن نظمأ إليهم ونَعض الأيدي على فراقهم)) (35) .

في هذا الاستفهام الذي أستعمله الإمام يدل على ثبات أصحاب رسول الله (ص) على النهج القويم ، وكانوا حقا أنصار الله تعالى وأنصار رسوله (ص) ، واستحالة أن يكون أصحابه (عليه السلام) بمثل أولئك الأصحاب ، وشتان ما بين الفريقين .

إنَّ مثل هذا السلوك المنحرف إنما يدل على التربية التي تربى عليها هؤلاء ، فضلا عن الوهن والضعف الذي أصاب عزائمهم وتباطؤهم عن نيل حقهم ، وعن نصرة أميرهم (عليه السلام) .

إنَّ ترك الجهاد في سبيل الله تعالى أو التهاون به لهو مثال أخر على ذلك الانحراف الديني الذي أصاب أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فقد روى الشريف الرضي أنَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) قد جمع الناس وحضهم على الجهاد فسكتوا مليا ، فقال:

((ما بالكم أمخرسونَ أنتم؟ ، فقال قوم منهم : يا أمير المؤمنين إن سرتَ سرنا معك . فقال عليه السلام : ما بالكم : لا سدُدتم لرُشد ، ولا هُديتم لقصد ، أفي مثل هذا ينبغي أنْ أخرج ؟ إنما يخرج في مثل هذا رجل مِمن أرضاه من شجعانكم وذوي بأسكم ، ولا ينبغي لي أن أدَعَ الجـُند والمِصرَ وبيت المال وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين ، والنظر في حقوق المطالبين ، وإنما أنا قُطبُ الرَحى تدور عليَ وأنا بمكاني ، فإذا فارقتُه استحار مدارُها واضطرب ثِفالها ، هذا لَعمرُ الله الرأيُ السوءُ)) (36) .

إنَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) قال هذا الكلام عندما بلغه أن أهل الشام كانوا يغيرون على أعماله بعد وقعة صفين ، ومثل هذه الحالات لا تستلزم خروج القائد الأعلى لمجابهتها بنفسه بل ينتدب لها من يراه مناسبا من قادة الجيش ورجال الحرب من أهل الكوفة غير أن تِقاعس الناس عن النهوض بمثل هذه الأمور البسيطة ليدل على انحراف نفسي وعقدي لديهم ، فهم ينتظرون منهم أن يكون معهم في كل صغيرة وكبيرة لا يستقيمون بدونه على العكس والنقيض من جيش معاوية ، وليس أدل على ذلك من توبيخه لهم وتعنيفه إياهم بقوله : ((ما بالكم أمخرسون أنتم ؟)) ، وفيه ما ينبئ أنَّ القوم كانوا يكرهون لقاء عدوهم مع علمهم أنه على باطل وأنهم على حق ، فقد لا ذوا بالصمت جبنا وخوفا ثم اشترطوا لقاء العدو بوجود أمير المؤمنين معهم ، وأن يكون هو الى جوارهم لا يفارقهم حتى في مثل صغائر هذه الأمور .

ولقد كان من شدة غضبه عليهم أن دعا عليهم بعدم السداد ، لأنه استنكر عليهم أن، يخرج هو بنفسه لمعالجة مثل هذه الأمور ويترك المصر وشؤون الدولة، في حين كان معاوية يقيم في دمشق ويكلف بعض قادته بإدارة شؤون الحرب وهم لا يعصون له أمرا .

إنَّ تخاذل بعض عسكره عنه في حرب صفين لمثال أخر على انحرافهم عن نهجه القويم وطريقه الصائب ، و على الرغم من ذلك لم يتوقف الإمام (عليه السلام) عن حوارهم لعلهم يفيئون إلى رشد ويعودون عن غي ، فقد روى الشريف الرضي أنَّ أمير المؤمنين خرج إلى معسكر الخوارج ، وهم مقيمون على انكار الحكومة فقال (عليه السلام) لهم :

((أكلكم شهد معنا صِفين ؟ فقالوا : منا من شهد ومنا من لم يشهد ، قال : فامتازوا فرقتين ، فليكنْ من شهد فِرقة ، ومن لم يشهدها فِرقة حتى أكلم كلا بكلامه ، ونادى الناس ِفقال : أمسكوا عن الكلام وأنصتوا لقولي ، وأقبلوا بأفئدتكم إليَّ ، فمن شهدناه شهادة فليقل بعلمه فيها)) (37) .

إنَّ تقسيم الإمام الناس فريقين ، فريق شاهد وآخر غائب يدل على أنه تبنى خطابين يناسب كل خطاب مخاطبيه لذا قال ((حتى أكلم كلا بكلامه)) أي بخطابه الذي يناسبه ويناسب ما يفكر فيه ، وطبعا لا يمكن للغة أن تتبرأ من مجازها ، فالمجاز خاصية لغوية به تقوم اللغة وعليه تستند ،فـ((ليس من المتوقع في نص لغوي أن يبرأ كل البراءة من التراكيب ذات الخاصية المجازية ، إذ المجاز متغلغل في نسيج اللغة لا تكون إلا به)) (38).

لا تكون اللغة لغة إلا من خلال الإظهار والإضمار ، فالوجه الأول لها هو الإظهار والوجه الثاني هو الإضمار، فهما متلازمان في هندسة النص وبيان المعنى المراد توظيفه من خلال هندسة المجاز .

إنَّ أولى تلك المسائل النصية هي ((الطريقة المخصوصة التي ينتهجها النص في أداء المعنى ، وهي طريقة تقوم على ثنائية الإظهار والإضمار، في النص لا يظهر معنى إلا ليخفي آخر ،ومن هنا أمكن الحديث عن المعنى المزدوج أو تعدد المعنى)) (39) .

واجه الإمام قبولهم التحكيم وما نتج عنه من ندامة وحسرة وتمزق رأي أصحابه وتفرقهم عنه وخروجهم عليه ، وبيان ما يضمرون وما يسرون قائلا :

((ألمْ تقولوا عند رفعهم المصاحف حيلةً وغيلةً ، ومكرا وخديعة : إخواننا وأهل دعوتنا ، استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه ، فالرأي القبول منهم والتنفيس عنهم)) (40).

هذا رأي أصحابه في إجباره على قبول التحكيم ، وهو رأي قد يكون ظاهره ينطوي على حسن النيات ، أما باطنه فيضمر أصحابه تخاذلا عن نصرة إمامهم ونصرا لعدوهم، وفي مواجهة هذا الرأي المنحرف يطرح (الإمام) رأيا أخر مخالفا له تماما يقف على النقيض ، يكشف عن خور رأي الخوارج وضعفه ،إذ يقول :

((فقلت لكم : هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان ، وأوله رحمة وأخره ندامة ، فأقيموا على شأنكم ، وألزموا طريقتكم ، وعضوا على الجهاد بنواجذكم ، ولا تلفتوا إلى ناعق نعق ، وإنْ أُجيب أضلَّ ، وإنْ تُرك ذُل ، وقد كانت هذه الفَعلة ، وقد رأيتكم أعطيتموها)) (41)

لقد تأول فتنبأ (عليه السلام) بأن فكرة رفع المصاحف من جهة معاوية وأصحابه ، وفكرة القبول بها من جهة الخوارج بأنه أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان ، وأوله رحمة وأخره ندامة ، وشتان ما بين الإيمان والعدوان ، وما بين الرحمة والندامة .

ويرد الإمام عليهم شبهة الأُخوَّة التي وقع فيها بعض أصحابه في مسألة التحكيم ، أي أن بعض صحبه قد انخدعوا بفكرة هم ((إخواننا وأهل دعوتنا ، استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه)) ، وذلك بقوله :

((ولكنما إنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج، والشبهة والتأويل ، فإذا طمعنا في خَصلة يلم الله بها شعثنا ، ونتدانى بها إلى البقية فيما بيننا ، رغبنا فيها وأمسكنا عما سواها)) (42).

ومن عجائب الدهر أن يُبتلى الإمام بأناس منحرفين عن نهجه القويم ، وسلوكه الصحيح لم تؤثر فيهم صفاته الفريدة من تدين لا مثيل له ، وشجاعة لا قرين لها ، وسماحة لا شبيه يشبهها ، وإنسانية ، وهو يدرك تماما أنَّ جيش معاوية هم قوم حيارى عن الحق لا يبصرونه، أغراهم الجَوْر فلا يستبدلونه بالعدل، جُفاة عن الكتاب ، يحيدون عن الطريق ، ومع كل ذلك الانحراف الذي تراه في جيش معاوية تجد أصحاب أمير المؤمنين لا يثبتون عند اللقاء لمثل هؤلاء القوم .

يقول (عليه السلام) في وصف انحرافهم عن طاعته : ((ما أنتم بوثيقة يُعلق بها ، ولا زوافرَ عز يُعتصم بها ،لبئس حُشاش الحرب أنتم ، أُفٍ لكم لقد لقيتُ منكم بَرحا ، يوما أناديكم ويوما أناجيكم ، فلا أحرارٌ صُدُقٌ عند اللقاء ، ولا إخوانُ ثقةٌ عند النَّجاءِ)) (43) .

تبدو صفاتهم هذه التي تمثل وجها من وجوه الانحراف السلوكي ، فهم ليسوا جنودا ثقة يمكن للقائد أن يطمئن لهم ، وليسوا أنصارا ولا أعوانا ، لم يلق (عليه السلام) منهم إلا الشر والشدة . ومن قبيح صفاتهم تلك أنهم لا يُسر بهم لا في شدة ولا في رخاء ، ولا يكتمون سرا. ولا يصدقون عند النداء .

أما الخوارج ؛ فقد واجه (عليه السلام) سلوكهم المنحرف مواجهة قوية لا تهاون فيها ، فهم قوم منحرفون عن الحق لن يعودوا عن الباطل ، توارثوه جماعة عن أخرى حتى صار لهم زعماء منهم يتزعمون باطلهم وتنال الأمة منهم شرا بعده ، وتنبأ (عليه السلام) أنهم سوف يمتهنون اللصوصية والتسليب في أخر المطاف ، وذلك حين لا يجدون من الناس عونا لهم ، ولما عزم على حربهم ، و قد قيل له أنهم عبروا الجسر، فقال:

((كلا والله ، إنهم نُطَفٌ في أصلاب الرجال ، وقرارات النساء ، كلما نجم منهم قَرْنٌ قُطع حتى يكون آخرهم لصوصا وسلابين)) (44) .

فقد كنى الإمام بذلك عن دوام نسلهم عبر الأزمان وأن لهم زعماء يتزعمون فكرهم وعقيدتهم تلك ، وسيلقى الناس منهم شرورا تصل إلى أدنى السلوكيات المنحرفة ، وهي التسليب في الطرقات والإغارة على الناس تحت جنح الظلام .

والاصلاح عند الامام يبدأ بعليا السلطة ورئيسها ليكون مثالا يقتدى به من قبل الرعية ، ولابد من الإشارة إلى العوامل التي تساعد في تغيير فكر الإنسان وعقله ، ومنها المعرفة الشخصية والاجتماعية والخبرات السابقة والآراء الشخصية والمواقف الاجتماعية والأيدولوجيات والآراء والقيم كما يرى فان دايك (45).

ويشير الإمام إلى فساد رأي الآخر بقوله : ((وإني لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم ، ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي)) ، والأود هو الاعوجاج (46) . وهو أشد مصاديق الانحراف عن القيم الراشدة ، والآخر هذا هو الخطاب المضاد لخطاب الإمام ...

خاتمة البحث :

مما تقدم تبين لنا أن الخطاب المضاد الذي تبنى أفكارا مخالفة قد شاع في عهد الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ولم يستطع أن يغير من توجهات ذلك الخطاب الذي تبنى وجهات نظر منحرفة للقاعدة السليمة ، لأنه قد تمكن من نفوسه أصحابه بسبب ميلهم عن الدين القويم أو السلوك الصحيح ميلا فطريا أو مكتسبا من ثقافات السلطات التي سبقت عهد الإمام ، فضلا عن ذلك استغلالهم فسحة الحرية التي وهبها لهم أمير المؤمنين ، وعدم استعماله مبدأ القوة الذي من أهم مقومات بناء السلطة التقليدية أو التعسف معهم .

لقد ذكر امير المؤمنين(عليه السلام) ذلك الانحراف في صفوف أغلب أتباعه من خلال خطبه وصاياه التي ألقاها في الكوفة أو كتبه التي أرسلها إلى عماله وولاته آنذاك في ساحات. ثم أشار الى معالجة ذلك الخطاب المنحرف بطريقة تربوية خالية من التعسف .

وما يميز ذلك الخطاب المُوجه للمنحرفين أنه خطاب ينطوي على لغة تأسر المتلقي سواء أكان سامعا أم قارئا. ومن خلال تتبع نصوص نهج البلاغة نجد إشارات كثيرة لنوعين من الخطاب (الخطاب والخطاب المضاد) ، خطاب موجه مقصود لذاته واع يحمل أفكار البناء الاجتماعي والديني والأخلاقي . ولم يكن خطاب الإمام يستهدف عقول الناس لغرض السيطرة بل يهدف إلى إعادة انتاج الخطاب المضاد من خلال مخاطبة عقولهم ، لأن العقل هو السبيل للسيطرة على الأفعال .

كان خطاب الامام يراعي أحوال المخاطبين في تشخيص سبل المعالجة وذلك على بناء علاقة متكاملة بين الحاكم والرعية حتى أصبحت السلطة عند الإمام وسيلة من وسائل التكامل الاجتماعي والديني والأخلاقي .

هوامش البحث :

(*) . ثمة مصادر كثيرة أسست مفهوم الخطاب وحقوله وغاياته وأهدافه وعلاقته بالسطلة وأثر كل منهما بالآخر ، ومنها على سبيل المثال : بلاغة الخطاب ، صلاح فضل استراتيجيات الخطاب ، د. عبد الهادي الشهري ، الخطاب والسلطة ، فان دايك ، نظام الخطاب ، ميشال فوكو ، خطابات السلطة من هوبز إلى فوكو ، بادي هندس ، الخطاب والتأويل ، د. نصر حامد أبو زيد . مأسسة السلطة وبناء الدولة ، وليد سالم محمد ...

(1) . ينظر بلاغة الخطاب وعلم النص ، د . صلاح فضل : 7 .

(2) . ينظر الخطاب والسلطة ،فان دايك : 45 .

(3) . ينظر المصدر نفسه : 59 .

(4) . ينظر : الخطاب في نهج البلاغة . بنيته وأنماطه ومستوياته ، د . حسين العمري : 15

(5) . المصدر نفسه : 20 .

(6) . شرح نهج البلاغة ، المقدمة : ب .

(7) . شرح نهج البلاغة ، المقدمة : ج .

(8) . الخطاب في نهج البلاغة ، د. حسين العمري : 23 .

(9) . علي بن أبي طالب (سلطة الحق) ، عزيز السيد جاسم : 285 .

(10) . النص والخطاب . مباحث لسانية عرفانية . د. الأزهر الزناد : 201 .

(11) . نهج البلاغة ، شرح الشيخ محمد عبده ، تحقيق فاتن محمد خليل :1/ 79 .

(12) . سورة محمد / 20 .

(13) ينظر : نهج البلاغة (مصدر سابق) ، الهامش : 77/1.

(14) . نهج البلاغة (مصدر سابق) : الهامش : 77 .

(15) . ينظر شرح نهج البلاغة (مصدر سابق) : 1/ 79 .

(16) . اللغة العليا ، جان كوهين : 88

(17) . ينظر التصوير البياني في خطب الإمام علي (ع) ، د. عباس علي الفحام : 193 .

(18) . الأمثال العربية القديمة ، رودلف زلهايم :25 .

(19) . الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة ، د. كاظم المولى (أطروحة دكتوراه) : 163

(20) . شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 2 / 204 .

(21) . توظيف الإمام علي (ع) للشعر في نهج البلاغة ، (بحث) : 14 .

(22) . شرح نهج البلاغة (محمد عبده) :1/ 79 .

(23) . المصدر نفسه : المكان نفسه .

(24) . المصدر نفسه : 83/1 .

(25) . المصدر نفسه : المكان نفسه .

(26) . التصوير الفني في خطب نهج البلاغة (مصدر سابق) : 65 .

(27) ينظر سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي : 81 .

(28) . شرح نهج البلاغة (محمد عبده) : 1 / 106 .107 .

(29) . المغامرة الجمالية للنص الشعري ، د. محمد صابر عبيد : 106 . 107 .

(30) . ينظر شرح نهج البلاغة (مصدر سابق) : 1 / 107 .

(31) . من تجليات الخطاب ، حمادي صمود : 200 .

(32) . نهج البلاغة : 1 / 201 .

(33) . المصدر نفسه : 1 / 202 .

(34) . المصدر نفسه (الهامش) : 1 / 202 .

(35) . المصدر نفسه (الهامش) : 1 / 201 .

(36) . المصدر نفسه : 1 / 199 . 200 .

(37) المصدر نفسه : 1 / 203 .

(38) . في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية . آفاق جديدة . د. سعيد عبد العزيز مصلوح : 199 .

(39) . من تجليات الخطاب (مصدر سابق) : 200 .

(40) . نهج البلاغة : 1/ 203 .

(41) . المصدر نفسه : 1/ 203 .

(42) . المصدر نفسه : 1 / 204 .

(43) . نهج البلاغة : 2 / 210 .

(44) . نفسه

(45) . ينظر الخطاب والسلطة : 48

(46) . نهج البلاغة : 1 /10.

مصادر البحث :

القران الكريم

1- الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة ، أطروحة دكتوراه ، كاظم فريح المولى ، جامعة البصرة ، 2007 م .
2- الأمثال العربية القديمة ، رولف زلهايم ، ترجمة رمضان عبد التواب ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1971.
3- بلاغة الخطاب وعلم النص ، د. صلاح فضل ، منشورات عالم المعرفة ، الكويت ، 1970.
4- التصوير البياني في خطب نهج البلاغة ، د. عباس علي الفحام ، ط1 ، مؤسسة الصادق الفنية ، النجف الأشرف ، 2012 .
5- الخطاب في نهج البلاغة ، بنيته وأنماطه و مستوياته . دراسة تحليلية ، د. حسين العمري ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، دار الكتب العلمية ، 2010 .
6- الخطاب والسلطة ، فان دايك ، ترجمة غيداء العلي ، منشورات المركز القومي للترجمة ،ط1 ،1970.
7- اللغة العليا ، جان كوهين ، ترجمة أحمد درويش ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون ، القاهرة ، 199.

8- المغامرة الجمالية للنص الشعري ، د. محمد صابر عبيد ، ط1 ، منشورات دار عالم الكتب ، الأردن ، 2010 .
9- ـ النص والخطاب ـ مباحث لسانية عرفانية ، د. الأزهر الزناد ، ط1 ، بغداد ، 2014 .
10- توظيف الإمام علي للشعر في نهج البلاغة (بحث) ، د. عبدالحسن علي مهلهل ، د. عادل راضي الزركاني ، مجلة أوروك ، العدد الأول ، المجلد التاسع ، جامعة المثنى ، 2016 .
11- سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، تعليق عبد المتعال الصعيدي ، القاهرة ، مصر ، 1952 ـ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط1 ، القاهرة ، 1959 .
12- شرح نهج البلاغة ، محمد عبده ، تعليق فاتن محمد خليل ، بيروت ، لبنان ، (د.ت) .
13- علي بن أبي طالب ، (سلطة الحق) ، عزيز السيد جاسم ،مؤسسة الزمان للنشر ، (د.ت) .
14- في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية ـ آفاق جديدة ـ د. سعيد عبد العزيز مصلوح ، مجلس النشر العلمي الكويت ، ط1 ، 2003 .
15- من تجليات الخطاب ، حمادي صمود ، ط1 ، منشورات مكتبة المتنبي ، السعودية ، الدمام ، 2012.